

المقاربة الموضوعاتية في ضوء الدراسات الغربية – النقد الباشلاري أنموذجا-

The thematic approach in the light of Western studies - Bashlaric criticism as a model

زوليخة مدرقنارو^{1*}، ميلود رقيق²¹ جامعة خنشلة، (الجزائر)، الايميل: zoulikhamederagnarou@gmail.com² جامعة خنشلة، (الجزائر)، الايميل: miloud.reguig@wanadoo.fr

تاريخ النشر: 2022/06/15

تاريخ المراجعة: 2022/03/26

تاريخ الإيداع: 2022/02/15

ملخص:

تهدف هذه الورقة البحثية إلى تسليط الضوء على المنهج الموضوعاتي باعتباره أحد المناهج النقدية المعاصرة يغوص في مكامن النص الأدبي باستقراء التيمات الكبرى والصغرى في العمل الأدبي. هذا الأخير الذي لم يلتفت إليه الأدباء في البلاد العربية بالقدر الكافي على عكس الأدباء الغربيين من خلال نموذج غاستون باشلار رغبة منا للوقوف على أهم ما جاء به هذا الفيلسوف والناقد الجمالي باعتباره ظاهرة فلسفية وجمالية ونقدية وأدبية تستحق التأمل والخضوع للبحث والقراءة ولإلقاء المزيد من الضوء عليه بشكل يكشف عن أبعاد هذا المنهج الموضوعاتي عنده فقد وضعت لاستراتيجيتي التنقيبية لسبر أغوار مضامين مختلف حيثيات نظريات المشروع الباشلاري في مجال النقد الأدبي لرصد آرائه وألياته وقراءاته للأعمال والنصوص الفنية والأدبية، محللين بعض الجزئيات والكليات التي دونها هذا الناقد الجمالي.

الكلمات المفتاحية: غاستون باشلار؛ المقاربة الموضوعاتية؛ الخيال؛ العمل الأدبي؛ مظاهر الوعي؛ التيمة.

Abstract:

This research paper aims to shed light on the thematic approach as one of the contemporary critical approaches. The latter, which writers in the Arab countries did not pay sufficient attention to, unlike Western writers, through the model of Gaston Bachelard, in our desire to find out the most important things that this philosopher and aesthetic critic brought As a philosophical, aesthetic, critical and literary phenomenon on that deserves contemplation and subjection to research and reading and shedding more light on it in a way that reveals the dimensions of this thematic approach to him for my excavation strategy, I set out to explore the contents of the various theories of the Basilar project in the field of literary criticism, the descriptive analytical approach to monitor his views, mechanisms and readings of works and artistic and literary texts. Analysing some of the particulars and colleges that this aesthetic critic wrote

Key words: Gaston Bachelard; thematic approach; imagination; literary work; manifestations of consciousness; Theme.

* المؤلف المراسل .

تنوعت مناهج النقد الأدبي كل حسب منظوره للظاهرة الأدبية، حيث أن الكثير من الدراسات أجريت على هذه المناهج، وذلك لمحاولة فهمها واستجلاء غوامضها بطرق جديدة وأدوات متطورة ورؤى معاصرة. ومن هنا شهدت الساحة النقدية مجموعة من الاتجاهات والمناهج التي تهتم بدراسة الأدب فتعددت بتعدد أساليب الخطاب الأدبي واختلاف منطلقاتها ومفاهيمها ومصطلحاتها، فبعض المناهج النقدية تقتصر على وصف العمل الفني وتفسيره وتأويله والوقوف على رموزه مثل المنهج الاجتماعي وغيره وفي المقابل نجد مناهج أخرى تتعدى ذلك إلى عملية التحليل الداخلي للنص أو العمل الإبداعي ودراسة بنياته وفك شفراته والوقوف على أبرز تيمماته كما هو الحال بالنسبة للمنهج الموضوعاتي، هذا الأخير الذي يعمل على تتبع التيممات الكبرى والصغرى في العمل الأدبي واستكشاف بنياته الفنية ودلالاته الفكرية فقد ظهرت في أوروبا إبان ستينيات القرن العشرين مع موجة النقد الجديد، كما ظهرت في العالم العربي متأخرة عن نظيرتها الأوروبية بعقد من السنوات ولم يهيمن النقد الموضوعاتي على النقد المعاصر بفرنسا إلا في الستينيات من القرن العشرين في الفترة التي كانت تسيطر فيها مجموعة من المناهج على النقد الجديد كالشعرية الفلسفية مع غاستون باشلار، هذا الأخير الذي أقام مدرسة أدبية أغنت كل التجارب الشعرية التي جاءت بعده أو ما سمي اختصارا بالنقد الأدبي الجديد الذي توزعته البنيوية والموضوعاتية ثم ساد وراءه أهم الأسماء النقدية في القرن العشرين نذكر منهم: بولي بارت روسي ريشار، غولدمان ستاروبسكي، غريماس، جينيت.

فقد أسس الفيلسوف الفرنسي غاستون باشلار، الذي اعتبر الأب الروحي لهذا النوع من النقد لأنه كان من السابقين من خلال كتاباته المتعلقة بعلاقة الخيال الإنساني بالعناصر الأربعة: الماء/الأرض/الهواء/النار، مسارا فكريا جديدا أثر في كل التجارب المعرفية اللاحقة. ونقصد بذلك الأسس النظرية لما عرف تاريخيا باسم النقد الجديد الذي انبعث بعد جدل بين أنصار الحداثة ومعارضيهما. ووسط كل هذا الجدل حاول مجموعة من النقاد الغربيين حمل لوائه والتأسيس له كغيره من المناهج، وفق دراساتهم وأعمالهم النقدية، ذلك أن اشتغال باشلار على هذه العناصر، بالإضافة إلى اهتمامه ببنية الشعري عند لوتريامون Lautréamont ساهم بشكل كبير في توجيه الأفق النظري لمجموعة من الأسماء شغلت الساحة النقدية الفرنسية في القرن العشرين أمثال جورج بولي، بارت، روسي، ريشار.

و من هذا المنطق جاءت الرغبة للوقوف على أهم ما جاء به هذا الفيلسوف والناقد الجمالي باعتباره ظاهرة فلسفية وجمالية ونقدية وأدبية تستحق التأمل والخضوع للبحث والقراءة وإلقاء المزيد من الضوء عليه بشكل يكشف عن أبعاد هذا المنهج الموضوعاتي عنده. هذا ما ولد في نفسي الباحثة حب الاطلاع على أسرارها وإبداعاتها و الغوص في غمار هذه التجربة النقدية حاولت من خلالها الإلمام بكل الجوانب، أما المنهج الذي اتبعه فقد وضعت لاستراتيجيتي التنقيبية لسبر أغوار مضامين مختلف حيثيات نظريات المشروع الباشلاري في مجال النقد الأدبي لرصد آرائه وآلياته وقراءاته للأعمال والنصوص الفنية والأدبية محللين بعض الجزئيات والكليات التي دونها هذا الناقد الجمالي وذلك لإظهار مدى أهمية النقد الموضوعاتي وإمارة اللثام عن آلياته.

ولتحقيق هذا الغرض طرحنا عدة إشكاليات حاولنا الإجابة عنها وتمثلت فيما يأتي:

ماهي أسس القراءة الموضوعاتية عند غاستون باشلار من خلال قراءته للأعمال الأدبية؟

و ما هي معالمه التي نادى بها؟ و هل وفق إلى حد ما في إرساء بعض دعائمه فقط؟ ولماذا اختار باشلار هذا

المنهج دون غيره؟ وكيف كان تطبيقه لهذا المنهج على النصوص الأدبية؟

أولا- تداول الموضوعاتي والموضوعاتية

1- مقارنة مفاهيمية

إن مشكلة المفهوم المضطرب وصعوبة التعريف الجامع المانع تنسحبان كذلك على إشكالات فردية تتعلق بأصول وامتداد هذا المنهج ومدارسه التي تنطوي تحته وحدوده المختلفة مع الاتجاهات النقدية والمعرفية المتنوعة، إذا فالحديث عما يسمى النقد الموضوعاتي أو الموضوعاتية يضعنا منذ البداية أمام حقل مصطلحي ممتنع عن التحديد من الأبحاث لثلة من النقاد المبدعين فتباينت تعاريفهم ومواقفهم لأن ما يميزهم هو اختلافهم النظري والمنهجي أيضا، فما هي المفاهيم المشتركة التي تنتظم النقد الموضوعاتي وتنضد أدبيات رواه رغم تعددها واختلافها؟

2- الدلالة اللغوية

ورد في قاموس لاروس الصغير كلمة موضوعي:

"أ- له علاقة بموضوع ويتمحور حول موسوعة موضوعية نقد موضوعي طريق القراءة النقدية التي تبحث عن دراسة المنهج الموضوعي والعودة إلى الأسباب من أجل استخراج التناسق في عالم خيالي والهدف العميق للكاتب قناة موضوعية التي تبث برامج تتمحور حول مواضيع مختلفة في مجالات مختلفة وهي عكس القناة العامة.

ب- لها علاقة بالمواضيع الموسيقية.

ج-- لسانية تدرس الكلمة.

د- لديها مجموعة من مواضيع مطورة من طرف كاتب أو مدرسة".¹

ويتفق قاموس أكسفورد الإنجليزي مع قاموس لاروس في أن مفهوم الموضوعاتية يتمخض إلى الموضوع، "الموضوعاتية متعلقة بالموضوع أو موضوعات شيء ما. البنية الموضوعاتية لنص ما، موضوعاتيا: جمعت الكتب موضوعاتيا على حسب موضوعاتها".²

إذن الموضوع أو الثيمة *thème* هو (المبدأ) الذي تلتقي عنده مفاهيم النص أو الكاتب. و(المحور) الذي تجتمع كلّ القربات السرية في النص، و(المركز) الذي تتوجه إليه الدراسة. فمنه تبدأ، وإليه تعود. فهو يوجّه العملية النقدية.

والموضوع مصطلح موروث من علم البلاغة القديم فقد آمدنا مفهوم الموضوع بعنصر مشترك مدلولي

أوإلهامي يسمح بمقارنة مؤلفين مختلفين انطلاقا من فهرس واحد".³

كما ورد في معجم الرائد مجموعة من المعاني منها:

"الموضوع: ج. مواضيع. موضوعات: المادة التي يبني عليها الكاتب أو الخطيب أو المحدث كلامه والمادة التي يبحث العلم عن عوارضها".⁴ فنجد من هذا المنطلق أن المنهج الموضوعاتي يهتم بدراسة البؤرة أو النواة أو الفكرة الجوهرية التي تكون الموضوع الأدبي وذلك من خلال التقصي عن المعنى الجوهرى والعميق الذي يختلج ذهن الكاتب وهذا دلالة على أن الموضوع هو تلك المادة التي تتوافر على ذلك التناسق المنطقي بين أجزائه وعناصره ووحداته.

والموضوعية مفرد "اسم مؤنث منسوب إلى موضع غير قياس، وموضوعي اسم إلى موضوع وموضوعي خارج الموضوع والموضوعية مذهب يرى أن المعرفة ترجع إلى حقيقة الذات المدركة وعكسها الذاتية".⁵

والموضوعة "هي فئة دلالية على مستوى البنية الكبرى وتعبر عن كينونات أكثر عمومي وتجريدا حول النص، كما يجب التمييز بينها وبين الحافز motif الذي يعد وحدة أكثر تجسيدا وتحديدا وبين الموضوع topos الذي يشكله مركب من الحوافز".⁶

ويشتق مصطلح الموضوعاتي thématique في الحقل المعجمي الفرنسي من كلمة thème وهي التيمة وترد هذه الكلمة بعدة معان مترادفة كالموضوع والغرض والمحور والفكرة الأساسية والعنوان والحافز والبؤرة والمركز والنواة الدلالية... الخ.⁷ يشترك مصطلح الموضوعاتي مع مفردات عدة من مثل تيمة وجذر وغرض ومحور كلها تنطوي تحت دلالة شكلية واحدة لأثر أدبي ما نتعرف من خلالها على الموضوع المهيمن للنص وتيماته الرئيسية من خلال الاشتقاق والترادف والقراءة المعنوية.

3- الدلالة الاصطلاحية

أما في الاصطلاح نجد "مصطلح جذرية thématique وجذر thème وتعني الفكرة الرئيسية أو الموضوع الذي يتناوله العمل الأدبي وهو المعنى الذي اصطلح عليه الأدباء والنقاد في اللغة الأوروبية وإن اختلف هجاؤه ونطقه من لغة إلى أخرى".⁸ فقد اختلف الكثير من النقاد والأدباء في تعريف هذه الكلمة من لغة إلى أخرى فنجد مثلا الذين يعربون عن الفرنسية يستعملون تيمة أما الذين يعربون عن الإنجليزية يستعملون تيمة. كما أن وجهة نظر الموضوعاتية تتلخص في كونها ليست معتقدا يتمحور حول فكرة معينة ولكنها بحث يبلور نموذجا لمقاربة التيمات والنصوص.

4- مفهوم الموضوع من منظور النقد الموضوعاتي:

قد كان الاصطلاح الموضوعاتي أو التيمي اصطلاحا انطباعيا إلى حد بعيد استعمله ج-ب- ويبر Jean Paul weber في معنى خاص "مطلقا إياه على الصورة الملحة والمتفردة والمتواجدة في عمل كاتب ما".⁹ إذ تقوم الموضوعاتية على حصر الصورة المكررة للنص موضوع الدراسة والكشف عن الموقع المهيمن التي تحتله التيمات الموضوعاتية والتي بدورها تشكل مفتاحا لفهم النص والولوج إلى عالمه الخاص.

ويظهر الموضوعاتي عند ج بيير ريشارد Jean Pierre Richard في شكل "هوية سرية ذات مستويات متعددة ترتبط بالتجربة الخاصة للوعي التأملي أو الخارج تأملي".¹⁰ فإذا كان الشعر قد شكل عند باشلار روح المقاربة الموضوعاتية فان ورثته بولي وريشار قد وجدوا في الرواية مخزنا لشتى الأفكار والموضوعات والقيمات التي تتناول مظاهر الوعي.

كما يرى النقد الموضوعاتي أن القيمة الجمالية كامنة في العمل الفني لأنها موضوعية بل ومطلقة وان العمل الفني موضوعي إذا ما كان وجوده غير مرتين بشيء آخر لكن برغم هذا يواجه الخطاب النقدي مشكلة في الجهاز المصطلحي لهذا المنهج النقدي ما يجعلنا نتردد بين الاحتفاظ بالمصطلح كما هو في لغته: التيم، التيمة أو اعتماد التعريب العربي الموضوعاتي الموضوعاتية الموضوعاتيات.

إذن تبنى المقاربة الموضوعاتية على "استخلاص الفكرة العامة أو الرسالة المهيمنة أو الرهان المقصدي أو الدلالة المهيمنة أو البنية الدالة التي تتجلى في النص أو العمل الأدبي".¹¹ وعليه فالمقاربة الموضوعاتية تبحث في أغوار النص للوقوف على جوهر الرسالة المهيمنة في الأثر الأدبي واستخراج النواة الأساسية أو البؤرة التي يتمحور حولها النص الأدبي سواء كانت شعرا أم نثرا. فالموضوع هو ذلك القلق والهاجس الذي استولى على اهتمام صاحب النص وكان من جملة البواعث الرئيسية لبؤرة إنتاجه الفني.

ومن النقاد العرب الذين عرفوا النقد الموضوعاتي على أساس الموضوع عبد الكريم حسن حين رأى "أنه بحث في الموضوع، وهو بحث يهدف إلى اكتشاف السجل الكامل للموضوعات الشعرية"،¹² حيث تولد التيمة تنويعات لها بواسطة الترددات المفرداتي للموضوعات الشعرية وهكذا يعمل القارئ على تحيين التيمة وإضاءة بؤرتها كمركز للتعرف على موضوع القصيدة.

في حين اقتصر النقد الموضوعاتي عند سمير سعيد الحجازي فقط على التيمات الواعية من خلال عرضه لمفهوم *Thématique Critique* الذي ترجمه إلى "نقد الموضوع" وهو "مفهوم يستخدم للدلالة على توجه الناقد في دراسته للأثر الأدبي نحو الكشف عن وعي الكاتب وغرضه، والتوحد بين ذاته وأسلوبه من خلال انطباعه الحسي، إذ لا يمكن فصل الإدراك الحسي عن عملية الإبداع، نظرا لأن المبدع يكشف عن نفسه في عمله ويقيم علاقة مزدوجة تبادلية بين الذات والموضوع أو بين المبدع وعمله".¹³ يلتقي التعريفان في كون الموضوع هو النقطة المركزية التي تنطلق منها عناصر الإنتاج الإبداعي فإذا كان التعريف الأول يركز أساسا على أن الموضوع هو مركز العملية الإبداعية أما التعريف الثاني يركز التيمات الواعية في علاقتها بالمعنى باعتبارها إحدى وحدات هذا المعنى إذ لا يتم رصدها إلا انطلاقا من تمظهراتها وامتدادها عبر مسافة العالم الإبداعي والحسي للكاتب.

وفي نهاية حديثنا عن الموضوعاتية يمكننا القول على أنها تعتبر العمل الأدبي معبرا عن الأفكار التي تختلج صاحبها الواعية منها واللأواعية ومن ثمة فان التيمة الموضوعاتية والأساسية التي ينطلق منها وهي الفكرة المسيطرة التي يقوم عليها العمل الأدبي والتي تمثل منه الجذر أو النواة وتنمو بواسطته بطريقة تعكس في الأخير أفكار صاحبها المبدع فيكون شغل الناقد هنا تتبع الأفكار المحددة خلال نتاج مبدع ما.

ثانيا- الموضوعاتية في النقد الغربي

لقد ظهر هذا المنهج النقدي في الخمسينات من القرن العشرين في النقد الفرنسي الذي تطور في ظل الألسنية والبنوية وحاول أن يحافظ على استقلاله اتجاه المناهج القديمة والحديثة" إذ اهتم النقد الفرنسي بالإرث اللاسنوني من جهة، وما يطلق عليه النقد الجديد من جهة أخرى، هذا ما ولد الفاصل الأساسي بين التيارين في توجه الأول نحو الكشف عن حقيقة النص من خارجه، أي النظر إلى العمل الأدبي من خلال صاحبه،¹⁴ وذلك نتيجة ارتباطه بالعلوم الإنسانية المساعدة، والثاني إلى اختراق معنى العمل ذاته. لكن ما يهمنا في هذا السياق رواد النقد الموضوعاتي الذين حملوا رايته عند الغرب ومن أهمهم:

1- جورج بولي George poulet

يعد جورج بولي أحد أهم أعلام المدرسة الموضوعاتية في الأدب ويمكن في هذا الصدد ذكر احد أهم أعماله:

- دراسات في الزمان الإنساني des études sur le temps humain

- البعد الداخلي la distance intérieure

- تحولات الدائرة les métamorphoses du cercle

- الفضاء البروستي l'espace proustien

- الوعي النقدي. la conscience critique.¹⁵

فقد حاول زعيم مدرسة جينيف للنقد الفينومينولوجي وتحت التأثير الباشلاري مقارنة مفهوم عنصري الزمان والمكان والفضاء ففي أعماله المتنوعة يحاول الوقوف على مظاهر الوعي الأدبي في لحظتها وذلك بوصف مغامرات هذا الوعي والبحث عن كيفية إدراكه داخل الفضاءات الزمانية والمكانية ومن ثم نجده يولي اهتماما بطرق الإحساس والإدراك لعنصري الزمان والمكان حسب ما يبدو من دراسته للزمن الإنساني بحثا شاملا يدور حول طرق الإحساس باللحظة الزمنية من خلال التاريخ الأدبي.

2- جان بيار ريشار: Jean Pierre Richard

يعتبر ريشار محطة أساسية وهامة في تطور النقد الموضوعاتي وتطبيقه واستطاع من خلال بحثه أن يصل إلى تحديد مفهوم البنية" ذات الاستعمال التقني الدقيق إذ يكشف في بنيات عمل ما، عن الفضاءات الأساسية التي يتكشف عبرها المعنى في مباحته لنقاط الحساسية والروابط القادرة على إدراك المشاكل والعبور من مستوى إلى آخر نحو الواقعي".¹⁶ (الموضوع عند ريشار، هو وحدة من وحدات المعنى، وحدة زمنية أو علائقية أو حسية مشهود لها بخصوصيتها عند كاتب ما. كما أنها تسمح له بالتوسّع الشبكي أو الخيطي أو المنطقي ببسط العالم الخاص بالكاتب. وهو النقطة الأساسية التي ينطلق منها الناقد، وإليها يعود في استنطاق مدلولات الصياغة اللفظية عبر تراكييها و ألفاظها.

فقد أكد هذا الأخير على البعد الذاتي للقراءة وأهمية القراءة الداخلية للنصوص ثم خاصة الوقوف عند محتوى الوعي وذلك من خلال مؤلفاته الآتية".¹⁷

- الأدب والحساسية littérature et sensation

- الشعر و الأعماق poésie et profondeur

- العالم المتخيل للمالارميه l'univers imaginaire de Mallarmé

- دراسات في الرومانسية études sur le romantisme

فلا تخرج الموضوعاتية عند ريشار في مقارنة النص عن التوجه للعمل الكتابي في فصل واضح له وعن مؤلفه فالغوص في أعماق العمل الأدبي يحيلنا إلى امتلاك رؤيته ووجهته الداخلية وجوهره المخبوء. كما انه ركز في دراساته الموضوعاتية على ربط الظاهرة ذات الطبيعة الموضوعاتية بعنصر الإحساس الخالص والعاطفة الخام وما يرتبط به من مشاعر وأحلام يقظة.

3- ج-ب- ويبر Jean Paul Waber

يعد جان ويبر من أبرز النقاد الموضوعاتيين الذين ركزوا في دراستهم للموضوعات على مرحلة هامة في حياة المبدع ألا وهي مرحلة الطفولة وتأثيرها على شخصيته إلى جانب الدور الذي تمارسه أحلامه المترسبة في ذاته المبدعة إذ "يدافع ج ويبر عن فكرة تعبير العمل الكامل لكاتب ما وبالضبط لشاعر ما عبر عديد لا ينتهي من الرموز أي من التعارضات عن هاجس أو موضوعاتية ما يعاد إبداعها في بعض الأحداث المنسية عامة في طفولة الكاتب ويضع ويبر كأساس لمنهجه ثلاث شروط أساسية هي:

- واقعية اللاوعي

- أهمية الطفولة

- إمكانية تمثيل رمز واحد لواقع قديم".¹⁸

وذلك من خلال أعماله الآتية: المجالات الموضوعاتية- مكونات العمل الشعري- النقد الجديد والنقد المتقطع أو ضد بيكار.¹⁹

من خلال ما سلف ذكره يمكن القول أن العمل الموضوعاتي في أعمال ويبر على استقرار الموضوع العام أو كما يسميه الهاجس الرئيسي الذي يظهر بشكل متكرر في الإبداعات الأدبية فالملاحظ أن ويبر في تحديده للتييمات الأساسية للأعمال الأدبية بقي متمسكا بشكل واضح بالبعد النفسي. فيلجا ويبر إلى البحث في طفولة المبدع بغية الوقوف على العوامل المختلفة التي قد يكون لها إسهام في اختياراته الموضوعاتية بغض النظر عن كونها سواء كانت واعية أو لاواعية.

ثالثا- النقد الموضوعاتي والنقد الباشلاري:

لم يكن غاستون باشلار* Gaston Bachelard ليصنف ضمن النقاد والأدباء لاهتماماته الفلسفية والنفسية إلا أن بحوثه عن عناصر الكون (الأرض – الماء النار الهواء) وتتبعه لشاعرية الشعراء جعلته اقرب إلى الأدب بأعماله الآتية: "التخيل الشعري- لهيب شمعة- شاعرية الفضاء – شاعرية الحلم- العقلانية المطبقة-

المادية العقلانية- الروح العلمية الجديدة- فلسفة اللا- جدلية الاستمرار".²⁰ وبهذا عد غاستون باشلار الأب الروحي للنقد الموضوعاتي بملاحقته للفضاء والحلم والزمن الأمر الذي جعل انشغاله يتمحور حول استقصاء المعرفة وإدراك حقيقة وجوه الأشياء والكلمات فهو لا يستبعد أبدا كل ما يحيط بالعمل الأدبي مما يمكن أن يقدم للناقد وسيلة لإلقاء الضوء على العمل الفني المدروس.

يرى اغلب الدارسين للنقد الموضوعاتي أن رائده الأول ومصدره الأساس هو غاستون باشلار حيث يقول محمد عزام: "والواقع أن الفيلسوف الفرنسي المعاصر غاستون باشلار قد مر بمرحلتين حاسمتين في حياته العلمية: الأولى انصرف فيها إلى دراسة المسائل التي تثيرها طبيعة المعرفة العلمية أما المرحلة الثانية فقد انتقل فيها إلى تلمس الموضوعات الظاهرية في العالم المادي مناقشا إياها من خلال منظور الخيال، فلسفة العلم، فلسفة الفن والجمال".²¹ فقد أسس غاستون باشلار ممارسة جمالية جديدة أثرت كل التجارب الفكرية التي جاءت بعده، أي ما يطلق عليها بالنقد الجديد المنشطر بين النقد البنيوي و الموضوعاتي ذلك أن دراسة الفيلسوف للشاعر لوتريامون** ثم كتاباته بخصوص العناصر الأربعة: (الماء-الهواء- النار- الأرض) وجهت ابرز الأسماء التي شغلت الساحة الأدبية والنقدية في القرن العشرين.

إذن باشلار صاحب كتاب التحليل النفسي للنار 1938 la psychanalyse du feu ولوتريامون 1939 Lautréamont ثم العناصر الأربعة غير كليا مسار النقد الأدبي، أكثر من كتاباته الأخرى المرتكزة على منهجية فينومينولوجية تعطي للوعي الفردي مكانة أولى لتحديد البعد الانطولوجي للصورة، اقصد بذلك العناوين الآتية: "شاعرية المكان - 1957- la poétique de l'espace شاعرية حلم اليقظة la poétique de la reverie 1960 - شعلة قنديل la flamme d'une chandelle".²² فقد اعتمد في أعماله النقدية صيغة موضوعاتية في مدى استجابة الأدباء الذي اشتغل عليهم للعناصر الطبيعية الأربعة وكذا أبعاد حضورها في مختلف الأشكال في أعمالهم الإبداعية فتأرجحت الجمالية الباشلارية بين مرحلتين فكريتين كبيرتين تشير الأولى إلى لحظة موضوعية تبنى فيها منهجية ونظرية تقوم على نزوع علمي محض، ارتباطا بالأفق المعرفي الذي وضعه باشلار لمشروعه وهو يشتغل على تشكيلات الفكر العلمي في حين سيتجاوز عند مستوى ثان الصرامة المفهومية للمختبرات والأنساق الرياضية قصد الإنصات لخفقان الذات في أقصى انسيابها.

كما لعب غاستون باشلار دورا كبيرا في هذا المسار النوعي عملت اشتغالاته على وضع إطار فكري آخر تحول في لحظة ما إلى اتجاه فكري قائم بذاته ذلك أن باشلار ومن خلال "دعوته إلى تأسيس فلسفة جديدة للخيال بدراسة الخيال في ذاته دون إحالته على منظومة رمزية أخرى قد تلغي الإدراك السليم والكامل لخصوصية الفعل الإبداعي والتأكيد على أولية الصورة وعلى قيمتها الحدائية ووقوفه على المكونات الداخلية للنص الأدبي بتحليل العناصر تبعا للتغيرات الدينامية للصورة".²³ لذلك عد غاستون باشلار نموذجا للشاعر الفرنسي الجديد وعالما نفسيا في الكتب وحالما فوق بساط النص الذي يقرأه باهتمامه بالخيال الخلاق والأسلوب النقدي الجذاب وتعديه للجمود الوصفي الكلاسيكي ورصده لقيمة اللاشعور في عملية الخلق الأدبي. إذ أن باشلار يجعل من الخيال عاملا منظما للعالم الخاص للفنان لأنه ظاهرة وجود وقد وظف باشلار "ظاهريته في دراسة موضوع الخيال حيث يرى انه لا يوجد موضوع دون ذات، وان وظيفة الظاهرية ليست وصف الأشياء

كما هي في الطبيعة فهذه مهمة عالم الطبيعة وإنما في القدرة على استعادة الدهشة الساذجة حين رؤيتنا لأشياء الطبيعة وذلك أننا حين نحلم فنحن ظاهراتيون دون أن نعلم".²⁴ فهو يستعرض أسلوب قراءة محايدة تقف على اللحظات الواعية لإنتاج النص وقد تحول إلى دال لا نهائي يكتسي مع كل قراءة حقيقة مختلفة فهو يؤكد على "ضرورة تبني فلسفة بديلة للخيال تدرسه في ذاته دون الإحالة على منظومة رمزية خارجية، الدفاع عن أولية الصورة وقيمتها الحدائية، تركيزه على المكونات الباطنية للنص وهو يحلل العناصر الكوسمولوجية الأربعة تبعا لتغيرات الصورة الدينامية".²⁵ فالنقد الباشلاري يستهدف إظهار الصور ويذهب أساسا إلى البحث في الخاصية الاستكشافية لأدباء أكفاء والوقوف على أصالة تعبيرهم وخصوصيتهم الحقيقية فانقل دوره من مجرد باحث عن حقيقة موضوعية بذاتية محايدة إلى مبدع ثان.

ورغم هذا يبقى تحليل باشلار غير متوازن إذ أن "اهتمام باشلار بالخيال الإنساني - في مكوناته الكبرى- يفوق اهتمامه بالعالم التخيلي الخاص بكل كاتب ففكر: إذا ليس فكرا "نقديا" بالمعنى الدقيق للكلمة فهذا الفكر لا يميل إلى جراء حملة اختبارات وإقامة تمييزات أو تصنيفات، وأولئك الذين جسدوا ومن بعده، النقد الموضوعاتي أعادوا توازن هذا الإجراء عن طريق إعطاء أهمية أكبر لخصوصية الأعمال الأدبية وتفردتها".²⁶

ولقد تأثر باشلار بالتحليل النفسي مثل فرويد و يونغ كما تأثر بالظاهراتية لدى ادموند هوسرل*** ومن ثم شغف بالتحليل النفسي كعلم جديد ومعرفته بفرويد جعله يسلم بقراءة نفسية للأثر الأدبي واعتبر "الصورة الشعرية بثا واعيا تقوم به نماذج وأنماط أصلية لا شعورية فتكسب دلالة جديدة قادرة على إشارة الأحلام وتكتسب الصورة دلالة مزدوجة فتعني شيئا آخر وتثير أحلاما بصورة مختلفة ذلك أن الخيال والأحلام والفكر هي التي تتكلم من خلال الأدب الذي يروي رغبة إنسانية".²⁷ فيستعين باشلار في بحثه في أعمال الأدباء الأكفاء على التنقيب عن تداعيات الطفولة البشرية أو أحلام اليقظة باعتبارها مصدر وأساس الإلهام كما انه اشتغل على مجموعة من النصوص الإبداعية مستلهما سواء التحليل النفسي أو الرؤية الفينومينولوجية توخى البحث عن التيمات والموضوعات الأساسية للنص ثم اكتشاف الصور التي تحمل سمة حلم يقظة مادي.

كما اهتم باشلار بعلم الظاهرات وانطولوجيا الخيال "الذي يشتمل عنده على مجموع الوظائف النفسية للإنسان، كان له وظيفة إبداعية فاعلة".²⁸ وبهذا يعدوريثا وتابعا للفكر الرومانسي فهو لم يتأثر بالمنهج النفسي فقط بل اعتمد أيضا على المنهج الفينومينولوجي، بدفع بالصورة عند الشاعر إلى محاولة التواصل مع الوعي المبدع للشاعر، فالصورة عنده تحلل فكرة مركزية في النتاج الشعري "أما الأهمية المركزية التي تحتلها الصورة فترجع إلى علاقتها مع أنماط الحياة البدائية للإنسان، وهي لذلك تعكس صدى هذا العمق التاريخي في نفس الوقت الذي تمتلك طابعها الخلود، إنها إذن بمثابة أحلام يقظة لا شعورية تعود بنا إلى الماضي".²⁹ ولذلك فهو يؤكد على ضرورة إسهام الروح، والمعرفة في دراسة ظاهرة الصورة الشعرية لأن الذات تمتلك داخلية ليست انعكاساً للعالم الخارجي. بل حالة شعورية تمتزج بالحلم، ويستريح فيها العقل، فالروح يقظة دون توتر. والعقل يضع لها المشاريع الأولية. ومن هنا فإن باشلار يميز بين (القارئ) العادي و(الناقد) الأدبي، فيرى أن الأول يكتفي بالاستمتاع بما يقرأ، بينما الثاني يتجاوز ذلك إلى معرفة كل شيء، والإحاطة بكل شيء، بل ومحاولة الخلق مع المبدع نفسه.

خاتمة

وفي الأخير يمكننا القول أن مشروع باشلار الجمالي له من الأهمية الكبيرة على مستوى المشاريع النقدية الجديدة مشروع فلسفي إنساني مختلف باقترانه بالروح التأملية التي سعى إلى تحقيقها مشروع إنساني بحث وخالص بالمعنى الواسع لمصطلح الإنسان لا جنس له ولا دين ولا لون له وهذا ما جعله في غاية الأهمية إذ يمكن الاستفادة منه بشكل كبير في بعث التجديد في الفكر العربي وقراءة المعرفة بصورة حديثة لا تفقدها جمالياتها أو هويتها.

هذه الروح الحدائثية المميزة لباشلار جعلت منه رائدا فكريا نموذجيا ومثاليا بتأسيسه نظرية جديدة للخيال وبناء يتناول النتاج الأدبي بطريقة مختلفة جمع فيها بين حلقتين إنسانيتين في غاية الأهمية يتصفان طبيعيا بالاختلاف والتناقض عبر إيجاد الحلقة التي ظلت ضائعة والمعادلة المعقدة بين التحقق المطلق للعقلانية الإنسانية والشعر باعتباره أقصى لحظات الانسياب والانفلات الذي هو مناط التخليق الإبداعي. وإظهاره للوجه الجمالي الأعمق للنتاج الأدبي.

اقتحم غاستون باشلار النقد الموضوعاتي من نافذته الفلسفية والابستمولوجية والشاعرية. إذ درس مجموعة من الصور الشعرية ذات البعد "التيماطي" بمقاربة فينومينولوجية تربط الذات بالموضوع باحثا عن مظاهر الوعي واللاوعي في الصورة الشعرية.

لقد حقق الخيال الكوني الباشلاري وظيفة بارزة في مجال نقد ألا وهي وظيفة اللاواقع وخلق شاعرية للمادة لان الخيال في تمسكه بالجواهر المادية بدوره يحقق استراحة تأملية يرسمها جماله الداخلي أو الباطني.

-يؤكد باشلار على وجود صلة بين الحياة الخاصة للصور (الصورة الشعرية) بالنماذج (الأصلية) التي يكتشفها التحليل النفسي. وأنه ينبغي أن يتم فهم الأدب عن طريق الصور الأدبية، فهي تحدد أصالة الكاتب. بوقوفه على الجمال الباطني والذاتي للمواد متجاوزا ما سماه بجمال الأشكال بغية تأسيس عناصر فلسفية للصورة الأدبية.

هوامش وإحالات المقال

1- petit la rousse grand format. 2004. P 1006.

2- "Thématique connected with the theme or themes of something , the thematic structure of a text. Thematically the books have been grouped thematically." Oxford Dictionary edited by Sally Wehmeier. six, six Th edition 2000, p1345

3- مجموعة من الكتاب: مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، تر: رضوان ظاظا، عالم المعرفة، الكويت، د، ط، 1997، ص: 119.

4- جبران مسعود، الرائد معجم لغوي عصري، ط 7، دار العلم للملايين، بيروت، 1992، ص: 781.

5- أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية، م3، عالم الكتب – القاهرة، 1429-2008، ط 1، ص: 2456.

6- حيدر الدبرنس، قاموس السرديات، تر: سيد إمام، ميراث للنشر والتوزيع القاهرة، ط 3، 2003، ص: 199.

7- جميل حمداوي، المقاربات النقدية الموضوعاتية، ط 1. مكتبة سلى الثقافية، الدار البيضاء، 2016، ص: 7.

8- نبيل راغب، موسوعة النظريات الأدبية، الشركة العالمية للنشر، لبنان، ط 1، 2003، ص: 254.

9- سعيد علوش: النقد الموضوعاتي، شركة بابل للطباعة والنشر والتوزيع، الرباط، د، ط، ص: 11.

10- المرجع نفسه، ص: 11.

11- جميل حمداوي، المقاربة النقدية الموضوعاتية، ص: 12.

- 12- عبد الكريم حسن: المنهج الموضوعي النظرية و التطبيق، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط 1، 1990، ص: 120.
- 13- سمير سعيد حجازي: إشكالية المنهج في النقد المعاصر، دار طيبة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط 1، 2004، ص: 220.
- 14- سعيد علوش: النقد الموضوعاتي، ص: 23.
- 15--سعيد بوخليط: غاستونباشلار مفاهيم النظرية الجمالية، عالم الكتب الحديث، اربد، ط 1، 2012، ص: 35.
- 16-سعيد علوش: النقد الموضوعاتي، ص: 24.
- 17- سعيد بوخليط: غاستونباشلار مفاهيم النظرية الجمالية، ص: 39.
- 18- سعيد علوش: النقد الموضوعاتي، ص: 27.
- 19- لمرجع نفسه، ص: 27.
- *- ولد غاستونباشلار في فرنسا سنة 1884 وتوفي في باريس سنة 1962؛ بدأ حياته المهنية عاملا في قطاع البريد لدى العاصمة الفرنسية، وبعدها التحق بالخدمة العسكرية الوطنية سنة 1906. وما بين عام 1919 و 1930 عمل كمدرس للفيزياء والكيمياء في أحد المعاهد، وحاز خلال هذه السنوات على درجة "الإجازة" في الفلسفة مما سمح له بتدريسها. وفي سنة 1927 عين كأستاذ لتاريخ العلوم وفلسفتها في جامعة "السوربون" الشهيرة، وظل في هذا المنصب إلى حين تقاعده في عام 1954. ومن بين أعماله نجد "فلسفة الرفض"، "العقل العلمي الجديد"، "العقلانية العلمية التطبيقية"، "النشاط العقلي للفيزياء المعاصرة"، "المادية العقلانية"، "التحليل النفسي للنار"،... وإلى غير ذلك من الإنجازات الفكرية الأخرى. غاستون باشلار وبناء ابستمولوجيا حديثة ينظر: <https://wp.me/pckAvr-3v>
- 20- سعيد علوش: النقد الموضوعاتي، ص: 23
- 21- ينظر: محمد عزام: النقد الموضوعاتينقلًا عن موقع <https://gastonbachelard1.blogspot.com>
- **- لكونت لوتريامون(Lautréamont): وهو اللقب الذي كان يكتب باسمه ايزيدوردوكاس (Isidore Lucien Ducasse) * شاعر فرنسي (4 أبريل 1846م مونتفيدو، الأوروغواي - 24 نوفمبر 1870م في الرابعة والعشرين من العمر)، يعتبر لوتريامون أول من كتب قصيدة النثر 1867 (أصبح مستشارا من الدرجة الأولى. تيمّم لوتريامون بعد عشرين شهراً من ولادته وواكب في طفولته الكوارث بدءاً من الطاعون الذي تفشى في أمريكا الجنوبية العام 1856 وانتهاءً بالحروب والثورات تلك الحقبة بين الأرجنتين والأوروغواي. ينظر: <https://ar.wikipedia.org/>
- 22- سعيد بوخليط: -غاستونباشلار مفاهيم النظرية الجمالية، ص: 15.
- 23- المرجع السابق، ص 25
- 24- محمد عزام النقد الموضوعاتي، نقلًا عن موقع <https://gastonbachelard1.blogspot.com>
- 25- سعيد علوش: النقد الموضوعاتي، ص: 11
- 26- رضوان ظاظا: مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، ص: 148
- **-* ادmond غوستاف ألبرختوسرل Edmund Gustav Albrecht Husserl، ألمانيا عاش ولد عام 1856 كفيلسوف وعالم رياضيات ومؤسس مدرسة الفينومينولوجيا بالقرن العشرين. وقد انفصل عن التوجه الإيجابي في العلوم والفلسفة في عصره، إلا أنه فصل انتقاداته حول التاريخانية وpsychologism في المنطق. ولم يقصُر نفسه على الوضعية، بل آمن بأن التجربة هي مصدر كل المعارف، فعمل على وضع طريقة الاختزال الفنونولوجي والتي فيها قد يعرف فيها الشخص جوهرها <https://www.marefa.org>.
- 27- محمد بلوحي. النقد الموضوعاتي الأسس والمفاهيم نقلًا عن موقع <https://gastonbachelard1.blogspot.com>
- 28- ينظر: مجموعة من المؤلفين، مقدمة في المناهج النقدية للتحليل الأدبي، تر: وائل بركات وغسان السيد، مطبعة زيد ابن ثابت، 1994 ص: 118.
- 29- حميد لحميداني، سحر الموضوع، دار تنفو برانت القادسية الليدو، فاس، المغرب، ط 2، 2014، ص: 29.

قائمة المراجع:

- 1- أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية، م3.
- 2- جبران مسعود، الرائد معجم لغوي عصري، ط 7، دار العلم للملايين، بيروت، 1992.
- 3- جميل حمداوي، المقاربات النقدية الموضوعاتية، ط 1، مكتبة سلمي الثقافية، الدار البيضاء، 2016.
- 4- حميد لحميداني، سحر الموضوع، دار تنفو برانت القادسية الليدو، فاس، المغرب، ط 2.
- 5- حيدر الدبرنس، قاموس السرديات، تر: سيد إمام، ميراث للنشر والتوزيع القاهرة، ط 3، 2003.
- 6- سعيد بوخليط: غاستونباشلار مفاهيم النظرية الجمالية، عالم الكتب الحديث، اربد، ط 1، 2012.

- 7- سعيد علوش: النقد الموضوعاتي، شركة بابل للطباعة والنشر والتوزيع، الرباط، د ط.
- 8- سمير سعيد حجازي: إشكالية المنهج في النقد المعاصر، دار طيبة للنشر والتوزيع، القاهرة، د ط، 2004.
- 9- عبد الكريم حسن: المنهج الموضوعي النظرية و التطبيق، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط 1 1990
- 10- مجموعة من الكتاب: مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، تر: رضوان ظاظا، عالم المعرفة، الكويت، د ط، 1997
- 11- محمد بلوحي. النقد الموضوعاتي الأسس والمفاهيم نقلا عن موقع <https://gastonbachelard1.blogspot.com>
- 12- نبيل راغب، موسوعة النظريات الأدبية، الشركة العالمية للنشر، لبنان، ط 1، 2003.
- 13- ينظر: مجموعة من المؤلفين، مقدمة في المناهج النقدية للتحليل الأدبي، تر: وائل بركات وغسان السيد، مطبعة زيد ابن ثابت، 1994 .
- المراجع باللغة الأجنبية:
- 1-Petit la Rousse grand format. 2004.
- 2- "Thematique connected with the theme or themes of something, the thematic structure of a text. Thematically the books have been group thematically." Oxford Dictionary edited by Sally Wehmeier. VITh edition 2000
- الموا اقعالإلكترونية:
- 1- <https://wp.me/pckAvr-3v1>-
- 2- <https://ar.wikipedia.org>
- 3- <https://www.marefa.org>
- 4-<https://gastonbachelard1.blogspot.com>4-